ISSN: 2523 – 1871

القيم الأخلاقية في شعر عَدّي بن زيد العِبّادي

أ. سعاد غيابة

(طالبة دكتوراة بجامعة محمد خيضر – بسكرة – الجزائر)

المستخلص:

جاءت هذه الدّراسة للبحث في أحد أهم قضايا العصر الجاهلي وهي القيم الأخلاقية –وما أحوجنا وأحوج هذا العصر لمثل هذه الدراسات– مسلّطين الضّوء عليها عند أبرز شعراء الحضر، وهو الشاعر **(عَدِّي بن زيد العِبَّادي)** وهذا من خلال التطرّق إلى مرجعية هذه الأخلاق عند الجاهليين، وقد وجدناها محصورة في: الفطرة، والبيئة بكلّ ظروفها، وكذلك إلى المعتقد الدّيني السّائد آنذاك، وهذا كلّه بغية الوصول إلى أهمّ القيم الأخلاقية التّي تميّز بها الشعر العِبَّادي، وقد أبرزنا هذه القيم من خلال أمهات الفضائل الأربع (العقل، الشجاعة، العفّة، العدل)، التّي اتّفق عليها الباحثون، وقد كانت بارزة بوضوح في شعره من خلال أغراضه الشّعرية المختلفة.

الكلمات المفتاحية:

مرجعية التخلق، شعر عَدّي بن زيد العِبَّادي، أمهات الفضائل الأخلاقية: (العقل، الشجاعة، العفة، العدل).

تمهيد:

تعدّ القيم الأخلاقيّة بمثابة الأساس الذّي تُبنى عليه الحضارات؛ كونها القاسم المشترك بين جميع شعوب العالم، منذ القديم إلى وقتنا الحالي، وإذا ما خصّصنا الحديث عن القيم الأخلاقية عند العرب الجاهليين، هنا يصبح الموضوع في غاية الأهمية؛ كون هذا العصر أكثر ما أشيع عليه هو الحرب وإراقة الدّماء، ومع أن مثل هذه الأحكام والنظرات السلبية مازالت منتشرة حتى في وقتنا الحالي عن الدارسين والباحثين وحتى عند أبنائنا الناشئين، والذي ساعد في انتشار مثل هذا الحكم وترسيخها هو ما سرده بعض المستشرقين الغربيين في كتبهم، وأيّدهم في ذلك بعض الباحثين العرب، وفي هذا يرى **(علي سليمان)** أن المؤرّخين قد أسرفوا في «تضخيم وتعميم مفاسد العصر الجاهلي ومثالبه، سواء من كان منهم من المؤرخين أو المستشرقين الغربيين، الذين بالغوا –أيضًا– في تضخيم مثالب عرب الجاهلية،

ISSN: 2523 – 1871

ربّما مجاراة لما قاله المؤرّخون المسلمون أنفسهم عن عرب الجاهلية، أو بدافع التّحامل والرّغبة في الحطّ من شأن العرب» (علي،2000: 89).

وإضافة إلى هذا نرى كذلك أن السّينما لها دور كبير في تأكيد هذه المغالطات، وهذا من خلال ما يعرض على شاشة التلفاز من أفلام تاريخية–على سبيل المثال نذكر: فيلم "**عنتر وعبلة**" الذي أنتجته السينما المصرية في وقت مضى، فعند مشاهدته نلحظ أنّ هناك مغالطات كثيرة عن حقيقة عنترة الرجل والشاعر، فقد جُعل منه عبدا لعبلة وذليلا أمامها، وأنه لا يقول الشعر إلّا إذا أمرته مولاته عبلة... وهذا لا حقيقة له، فعندما نرجع إلى ديوانه؛ نجد حياته واضحة وفق تسلسل شعره، فقد كان عفيفا وحليما ويحمل صفات أخلاقية لا نبالغ إن قلنا: إنّها لا تتوفّر عند شاعر آخر غيره، وعليه عندما نريد معرفة حياة الشاعر، خاصّة الجاهلي من الشعراء، لا بدّ لنا من الرجوع إلى شعره؛ لنعرفه حقّ المعرفة (رشيد، 2017)– تحمل بين طيّاتها تحريفا لما ورد في الكتب الأدبية، التي أرّخت حياة تلك الفترة، وكأن هؤلاء عمدوا إلى تبيين الجانب السلبي للعرب، منذ أول عصر نعرفه عنهم، والذي بدوره يمثّلنا نحن العربَ.

ولكي نغوص في الأخلاق النبيلة، التي تحلّى بها الجاهليون، ونعرفها حقّ المعرفة، ونبرزها للناشئين؛ يلزم علينا الرجوع إلى المصدر الأوّل الذي خلّد لنا حياة الجاهليين من جميع نواحيها، وأبرز لنا كذلك طرق تفكيرهم، ونقصد هنا الشعر الجاهلي الذي «فيه مجال أوسع لاستكناه الحقيقة من سجلّات متنوعة، خلّفها شعراء عبّروا عن عواطفهم صادقين، وصوّروا حياتهم العامّة غير كاذبين» (الحوفي، د.ت: 04)؛ فالشعراء الجاهليون وغيرهم لم يتركوا لنا ذرّة من حياتهم وحياة أبناء عصرهم إلّا وذكروها في شعرهم، وعليه إذا أردنا أن نعرف أيّ مجتمع –خاصّة الجاهلي– كان لا بدّ لنا من الرجوع إلى الأدب، ونخصّ بالذكر الشعر منه؛ لأنه أقرب الفنون اتّصالا بحياة الناس وتصويرها تصويرا دقيقا من جميع جوانبها، وهذه حقيقة يقرّها الشعراء أنفسهم، فها هو **أبو تمام** في معرض مدحه لأحمد بن أبي داود يؤكد لنا أنّه لا يمكننا أن نعرف الصفات الحميدة للإنسان إلا من خلال الشعر يقول: (أبوتمام، د.ت: 287)

ISSN: 2523 – 1871

(بحر البسيط)

لَوْلاَ خِلاَلٌ سَنَّهَا الشِّعْرُ مَا دَرَى بُغَاةُ العُلاَ مِنْ أَيْنَ تُؤْتَى المَكَارِمُ

ولكي نعرف أخلاق العربي على بيّنة ووضوح؛ عمدنا في هذا المقام إلى تسليط الضوء على شعر شاعر من أبرز شعراء الجاهلية، أقلّ ما يقال عنه: إنه من دهاتها الأوّلين في قول الشعر، ونقصد بذلك الشاعر:**(عَدّي بن زيد العِبَّادي)**، الذي يعتبر شاعر الحِيرة الأول والأشهر، وهو من تميم، عاش في بلاط **(كسرى أبرويز)** وفي الحيرة حين ملكها **(النّعمان بن المنذر)**، كان سياسيا، وأديبا، وشاعرا اشتهر بشعر الحكمة، والخمريات، وكانت له مكانة مرموقة في بلاط كسرى، وفي بلاط **(النّعمان)**، ويقرر **(الجاحظ)** هذه الملامح في قوله: «كان عدّي نصرانيا ديّانيا وترجمانا، وصاحب كتب، وكان من دهاة أهل ذلك العصر» (الجاحظ، 1988م،ج4: 480)، وقد كان **(عدّي)** ينعم بحياة حضرية تختلف تماما عن طريقة العيش في الحياة البدوية، التي طالما قامت الدراسات القليلة في الجانب الأخلاقي على هذه البيئة دون البيئة الحضرية، مع أنّها كانت مواكبة لها في الزمن، وأردنا من خلال هذه الدراسة تبيين أنّ الشاعر الحضري آنذاك كان هو الآخر يتمتع بأخلاق سامية يتحلّى بها وأفراد مجتمعه، والتي من شأنها أن تخلّد هذا الإنسان عبر العصور، وعند استقرائنا لقصائد ديوان (عَدّي) تبدت لنا مجموعة من القيم الأخلاقية، كشفتها الأغراض الشعرية عنده، وقبل معرفة أهمّ القيم الأخلاقية عند الشاعر، لا بدّ لنا من الوقوف عند معرفة المنابع التي استقى منها العربي هاته الأخلاق، وعلى هذا ستكون بداية انطلاق بحثنا عن المرجعية الأخلاقية عند الإنسان العربي قبل الإسلام.

ISSN: 2523 – 1871

أولا: المرجعية الأخلاقية عن العرب الجاهليين:

1 – الفطرة:

من المعروف أنّ الجانب الفطري في الإنسان يتمثّل في الأعمال التي ألهمها الله له، ومعنى هذا أنها وُلِدت معه، ولا إرادة له فيها، وتكون هذه الأعمال التي جُبل عليها الإنسان خيّرة؛ أي أنها تستحسن الحلال، وتمقت الحرام في الفعل والقول، فبالفطرة نستطيع أن نعرف معدن الإنسان وجوهره على أساس أنّ: «جوهر الإنسان يتمثّل في عمق الفطرة وثرائها، فيه إمكانيّات الإنسان الكامنة، وطاقاته المتأصّلة لإنسانيته، وإعلائها فوق ماديّاتها» (زريقي، شتاء 1340هـ/2012م:65).

وعرب الجاهلية –كغيرهم من الأمم التي خلقها الله وجَبلها على أخلاق رفيعة– كانوا يتحلّون بأخلاق ليست لهم القدرة على تكوينها أو اكتسابها، فقد ألهمهم الله بها، فلو أمعنّا النظر في أغلب دواوين شعراء ما قبل الإسلام، سواء أكانوا أهل بداوة أم أهل حاضرة، لوجدناها تحمل بين طيّاتها قيمًا أخلاقية كانت مُتَجَذِّرة في الإنسان العربي منذ ولادته بعامل الفطرة، ونكاد نجدها متشابهة عندهم؛ لأنّها كانت تدفع بالعربي إلى كلّ ما هو خير، ويُدعم ويحيي الجانب الإنساني فيه، وما يؤكّد لنا هذا هو ما وجدناه من قيم رفيعة عند الشعراء **الصعاليك** الذين يعتبرون الفئة المتمرّدة عن مجتمعهم، فلو اطّلعنا على شعرهم لوجدناه يتضمّن دعوة إلى التحلّي بالإنسانية وبمكارم الأخلاق، فعلى سبيل المثال لا الحصر، لو قرأنا لاميّة العرب لـ:**(الشنفرى)** لوجدنا أنّها تتضمّن قيما أخلاقية راقية، وقد دلّت على أخلاق الفارس الشجاع الذي لا يُقْهَر، ولا يحبّ الظلم، ولا يطمع في الدنيا... ومثل هذه الفضائل زادت في السموّ الفكري عند الشاعر، وجعلتنا –نحن قرّاءَ شعره– نؤيّد رفض الشاعر لمجتمعه، وما يسود فيه من ظلم وجبروت، بَدلًا من رؤية أنّه شاعر تمرّد عن قبيلته، ولم يحافظ على انتمائه القبلي، إلى جانب ما ذكرناه نجد شاعرًا آخر وهو **(امرئ القيس)**، والمعروف بلهوه ومجونه، إلا أنّ هذا لم يمنع من أن نجد في شعره فضائل كانت فطريّة لم تتأثّر بمعطيات حاله وعربدته، ونذكر في هذا المقام أنّ الباحث **(محمّد الغامدي)** قد أجرى "استبانة" (الغامدي، 1423هـ/2002م:339)، على المعلقات العشر من ناحية الفضائل والرذائل، وأيّ منها طغت على شعر شعراء المعلقات، وقد وجد أنّ الفضائل أكثر من الرذائل في أشعارهم، فقد بلغ عدد الفضائل: (228)، أما الرذائل فقد بلغ عددها: (30)، وهذا البون الشاسع بين الفضائل والرذائل

ISSN: 2523 – 1871

من ناحية العدد يجعلنا نطمئنّ إلى أنّ الأخلاق الرفيعة –بفضل ملكتها الفطرية– ظلّت وستظلّ بمثابة الصوت الخفيّ الذي يسكن أعماق النفس البشرية؛ لكي يترك صداه أثرًا كلّما انحرفت عن طريق الخير، فبفضل: «هذه الفطرة المهتدية المطمئنة التي أحاطت بها مقوّماتها ومنبّهاتها في بدائها المضيء الفسيح، فأصبحت أهلا لحمل رسالة الإسلام بالوعي والعقل، واللغة والسلوك» (سالم، 1989م: 190).

وعلى الرغم من أنّ القيم الأخلاقية وجدناها فطرية عند عرب الجاهلية، إلا أنها تتأثّر وتتحدّد كذلك بالاكتساب، وهنا تأتي في الطليعة البيئة المحيطة بالفرد، التي تترك بصمتها في كلّ فرد من أفرادها.

2– البيئة العربية بمختلف ظروفها:

قد أثّرت البيئة الجاهلية بمختلف مظاهرها (طبيعية، واجتماعية، وسياسية...) في الإنسان العربي تأثيرًا كبيرًا، وقد انعكس ذلك في سلوكه، وفيما يقوم به من أنشطة، التي بدورها تحدّد مساره الأخلاقي، ولا يخفى علينا أنّ البيئة الجاهلية كانت مقسّمة إلى قسمين: بيئة حضرية مستقرّة، وبيئة بدوية غير مستقرّة، وعلى الرغم من الاختلاف الواضح بين البيئتين في طريقة الحياة، وكذلك من ناحية تكوين الفرد فكريا وثقافيا، إلّا أنّ هذا لم يمنع من وجود أخلاق سامية متشابهة؛ لأن كلتيهما عربية الأصل، وقد نبّه **(الجاحظ)** إلى أنّ العرب على الرغم من اختلافهم في البيئة وفي تكوين الفرد، إلّا أنّهم يبقون أمّة واحدة من حيث الأخلاق واللّغة والشمائل، يقول: «إنّ العرب لما كانت واحدة فاستووا في التربة وفي اللّغة والشمائل والهمّة وفي الأَنَفِ والحَمِيَّة وفي الأخلاق والسجيّة، فسكبوا سكبا واحدا وأفرغوا إفراغا واحدا، وكان القالب واحدا، تشابهت الأجزاء وتناسبت الأخلاط» (الجاحظ، 1399هـ،ج1:11)، ويعرض لنا **(يوسف خليف)** العلاقة بين الإنسان وبيئته –وقد أخذها عن الباحثة الإنجليزية **(سِمبل)**– بقوله: «هناك عاملان أساسيّان في كل مشكلة من مشكلات التاريخ؛ هما: الإنسان، والبيئة، وأنّ العامل الإنساني هو القوة المحركة الدافعة في كلّ نشاط بشري، في حين أنّ العامل الجغرافي يمثّل القوّة الثابتة الموجّهة لهذا النشاط، التي لا تكفّ عن العمل وفرض حتميّتها على اتّجاهاته ومجالاته» (خليف، فبراير 1965:

16)، ونفهم من قوله أنّ الإنسان بالنسبة للبيئة يمثل القوّة المحرّكة لها، وهذا من خلال مختلف الأنشطة التي يقوم بها، في حين أن البيئة تُعَدّ بمثابة القوة الثابتة، التي تحتاج إلى دفع وتحريك من طرف الإنسان، وهذا يعني أن البيئة والإنسان يشكّلان كتلة واحدة.

ومن المعروف أنّ البيئة الجغرافية الجاهلية في عمومها كانت المساحة الأكبر منها صحراء قاحلة، لذا كان المناخ السّائد فيها هو المناخ الحارّ، الذي أدّى إلى الجفاف ووعورة العيش والتأقلم، وقد تحدّى العربي هذا المناخ، ولم يجعله حاجزا سلبيا أمامه قطّ، بل تعدّاه وتحدّاه بالمواجهة والرفض، وخير دليل على ما قلناه هو أنّه: من رَحِم هاته الطبيعة القاسية تولّدت لنا قيم أخلاقية، وكأنّ المناخ القاسي انعكس إيجابا على شخصية العربي، وهو بهذا العمل يكون قد قَبِل التحدّي من الطبيعة القاسية، وكان أهلا لذلك، فواجه هذه القساوة بالفضائل الأخلاقية كالكرم والشجاعة... وما يدعم ما أسلفناه هو قول **(زكي العشماوي)** في تَولّد القيم الأخلاقية من قسوة المناخ، يقول: «إنّ الجفاف والجدب ووعورة الحياة هي التي حدّدت القيم الأخلاقية عند العرب، فشعور العرب بالضعف أمام قوّة الطبيعة وقسوتها، هو الذي فرض عليهم تقديس القوّة والبسالة، وهو الذي جعلها مبدأً من مبادئ السيادة عند العربي، وهو الذي ولّد الشعور بالحاجة إلى جانب واجب مقدّس، وهو واجب الضّيافة والنجدة والمروءة». (العشماوي، 1980: 220)، والبيئة الطبيعية ليست هي وحدها فقط من حدّدت لنا الأخلاق الفاضلة، التي كان يتمتّع بها العربي، بل كانت إلى جانبها البيئة الجغرافية والسياسية، فقد كان المجتمع الجاهلي مقسّمًا إلى قبائل (بدو) وقرى (حضر)، وقد كان سكان البدو والحضر موحّدين من ناحية الشكل السياسي، وبالطبع مختلفين من ناحية سير النظام، وكذا المناصب السيّاسية المتاحة عندهم، وقد كانوا كذلك يدا واحدة وأخلاقا واحدة وإن تفاوتت بينهم، ويتحدّث لنا **(شوقي ضيف)** عن بعض أخلاق سكان البدو فيصفهم بقوله: «إن أفراد القبيلة كانوا متضامنين أشدّ ما يكون التضامن وأوثقه، وهو تضامن أحكم عراه حرصهم على الشرف، وقد تكوّنت حوله مجموعة من الخلال الكريمة، لعل خير كلمة تجمعها هي كلمة المروءة، التي تضم مناقبهم من مثل: الحِلْم، والكرم، والوفاء، وحماية الجار، وسعة الصدر، والإعراض عن شتم اللئيم، والغض عن العوراء...» (ضيف، د.ت، ج1: 67).

ISSN: 2523 – 1871

وبعد هذا العرض الموجز المفيد نستطيع القول: إنّ هذه البيئة بمختلف ظروفها، عند سكان الجزيرة العربية، هي التي خطّطت لمختلف الأنشطة البشرية آنذاك وفي جميع الأصعدة، ومنها استقى العربي أخلاقه، وهي تأتي في المرتبة الأولى من ناحية تأثيرها في الأخلاق المكتسبة، وبعدها يأتي المعتقد الديني الذي كان سائدًا آنذاك.

3- الدين:

لعلّه من القلّة أن نجد الأخلاق بمعزل عن الدّين، هذا الأخير الذي يعتبر بمثابة الموجّه والهادي للبشرية جمعاء إلى الطريق المستقيم، وإذا ما خصّصنا الحديث عن الدين، أو بمعنى أدقّ المعتقد الدّيني عند عرب ما قبل الإسلام فإننا نجد أنفسنا أمام معتقدات دينية متعدّدة، إذْ لم يكن يجمعهم «معتقد ديني واحد، وعرفوا عقائد متباينة، لعلّ الوثنية كانت أوسع أديانهم انتشارا، وعرف العرب اليهودية والنصرانية وعبادة الكواكب التي سمّى القرآن من يعبدونها الصابئين، أمّا فكر الأحناف فكان مقتصرا على جماعة من العرب لم يعبدوا الأصنام، وقد آمنوا بوجود إله واحد، وقد قيل بأنّ هاته الجماعة كانت على دين إبراهيم الخليل» (الإسكندري، 1994م: 03)، وعلى الرغم من وجود بعض الاضطراب في المعتقد الديني لديهم، من ناحية أنّه لم يكن لديهم إلٰه واحد يخلصون العبادة له، إلّا أنّ هذا لم يمنع من حديثهم عن هذا المعتقد، بمختلف أشكاله، وهذا ما بينه لنا شعرهم، فالشعراء لما أحسّوا بقيمة الفكر الخلقي، ومدى تأثيره في حياة الناس وفي توجيههم، رأوا أنّه من الأفضل عليهم أن يبرزوا العقائد السائدة في زمانهم، وقد عكست بوضوح حياتهم الدينية، فنجد كل شاعر يعبّر عن المعتقد الدّيني الذّي كان يعتنقه، وقد بدا هذا في شعرهم الوِجداني وحِكَمِهِم، وقد لاحظنا كذلك ورود كلمات: الله، والإلٰه، والرّب، كثيرا في أشعارهم، وهذا ينبئ بمعرفتهم أن هناك إلٰهاً واحدًا، هو من يملك هذا الكون، وقد خلق كل شيء، ولعل هذا راجع إلى ما جاء في الكتب السماوية آنذاك، ونقصد هنا المسيحية واليهودية، اللتان تُقرانّ بعبادة الرّب الواحد وإنْ اختلفتا في طرق العبادة، وكذلك إلى تأثير مبادئ الديانة الحنيفية، التي جاء بها **(سيدنا إبراهيم عليه السلام)**، والتي تدعو إلى عبادة الإله الواحد، ويجب أن نشير هنا إلى أنّ الشعراء عندما كانوا

ISSN: 2523 – 1871

يدعون إلى التحلّي بمكارم الأخلاق، كانوا يبرزون أهمّ القصص الدينية، التي تلخّص حياة السابقين لكي تكون عبرة لهم، وكانوا يذكرون أهمّ الصفات الأخلاقية التي تحلّى بها الأنبياء آنذاك، والأمثلة في هذا الشأن كثيرة، ولا بأس أن نورد بيتا شعريا **(للنابغة الذبياني)**، يصف فيه **(النعمان بن المنذر)** بالأمين، ويقرنه بـ**(نوح عليه السلام)** في الحفاظ على الأمانة، يقول (الذبياني، 1996م: 73): (بحر الوافر)

فَأَلْفَيْتَ الْأَمَانَةَ لَمْ تَخُنْهَا كَذَلِكَ كَانَ نُومُ لَا يَخُونُ

وفي نهاية حديثنا عن المعتقد الديني الجاهلي نستطيع القول: إنّ هذا التنوع في المعتقد وعلى الرغم من أنّ ما وصلنا منه من نصوص شعرية قليل، ولا نستطيع من خلاله الحكم على وجود دين بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، فإنه أسهم بدرجة كبيرة في غرس قيم أخلاقية في نفوس العرب آنذاك، وبقيت خالدة حتى وقتنا الحالي.

وممّا تقدّم عن المرجعية الأخلاقية عن عرب الجاهلية، نستطيع أن نقول: إنّ الإنسان في أصله تنبع أخلاقه من فطرته قولا وعملا، وهذا لا يتجسّد ولا يكتمل إلّا بالاكتساب من البيئة التّي يعيش ويترعرع فيها، ويقوم المعتقد الديني بتقويم هاته القيم والحفاظ عليها.

وقبل أن نغوص في القيم الأخلاقية عند **(عدّي)** لا بأس أن نورد مخطّطا نُظهر من خلاله المرجعية الأخلاقية عند عرب ما قبل الإسلام لكي تتّضح لنا الفكرة:

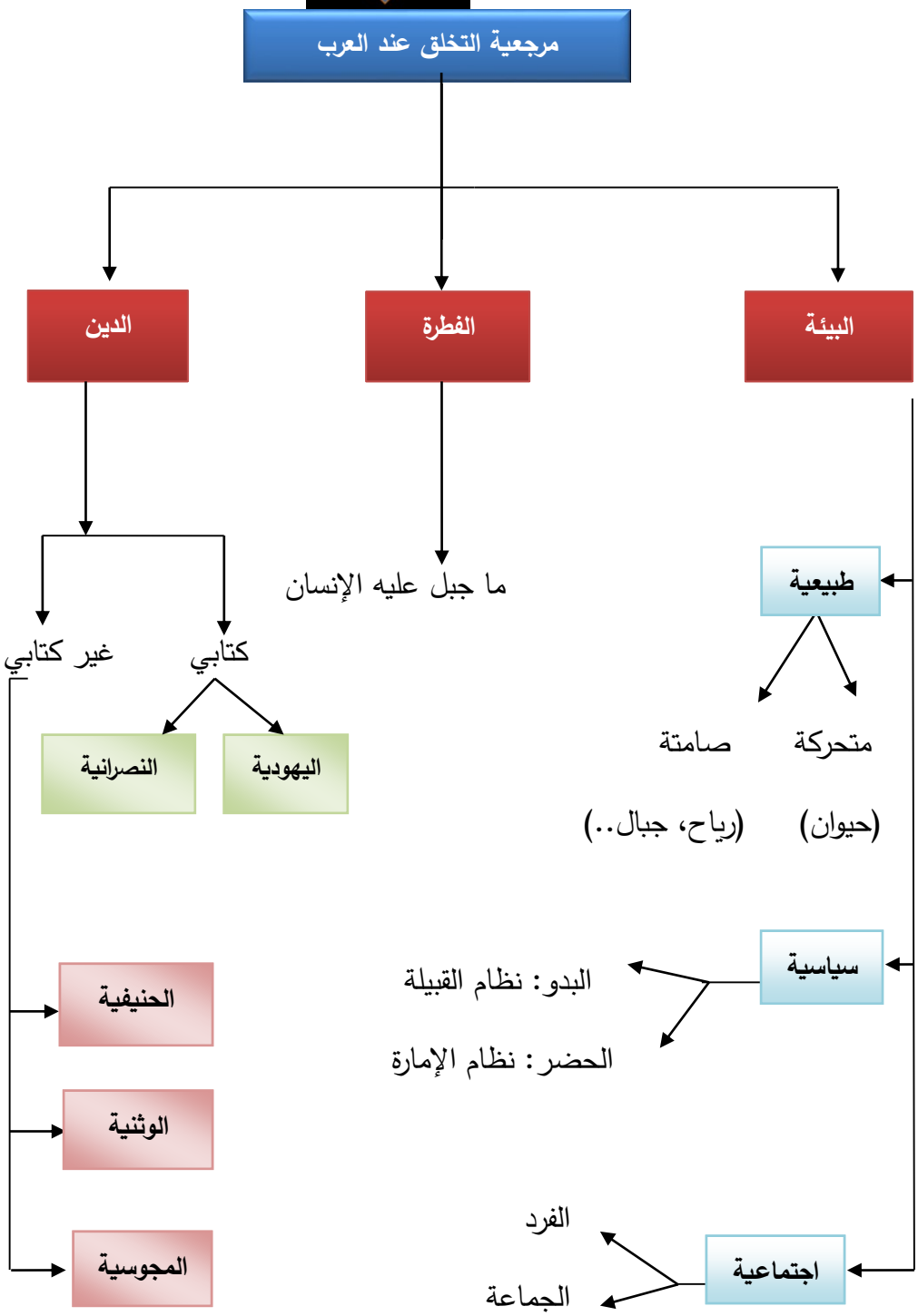

مخطط توضيحي للمرجعية الأخلاقية عند العرب

ISSN: 2523 – 1871

ثانيا: تجلّيات القيم الأخلاقية في الفضاء الشّعري العبّادي:

سندرس في هذا المجال القيم الأخلاقية من منظور أمّهات الفضائل، وعلاقتها بالأنفس التي حدّدها **(أفلاطون)**، وهذا في أثناء حديثه عن تقسيم النّفس البشرية، وبعد أن قسّمها حدّد من خلالها أربعة فضائل، وهي: العقل، والشجاعة، والعفّة، والعدل. وقد توسّع فيها وشرحها صاحب كتاب "**نقد الشعر**" وهذا في موضع حديثه عن نعت المديح، وقد حصر الفضائل في أربع، وكل فضيلة تتفرّع عنها فضائل أخرى، وللتوضيح أكثر نذكر ما جاء بين طيّات كتابه في هذه الفضائل، يقول: «إنّه لمّا كانت فضائل النّاس من أنهم ناس، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان، على ما هي عليه أهل الألباب من الاتّفاق في ذلك، إنّما هي العقل والشّجاعة والعدل والعفّة... ومن أقسام العقل: ثقابة المعرفة، والحياء، والبيان، والسياسة، والكفاية، والصدع بالحجّة، والعلم، والحِلم عن سفاهة الجهلة، وغير ذلك ممّا يجري هذا المجرى، ومن أقسام العفّة: القناعة وقلّة الشَّرَهِ، وطهارة الإزار، وغير ذلك ممّا يجري مجراه، ومن أقسام الشجاعة: الحماية والدفاع، والأخذ بالثأر، والنكاية في العدو، والمهابة، وقتل الأقران والسير في المهامِهِ الموحشة والقِفار، وما أشبه ذلك، ومن أقسام العدل: السماحة، ويرادف السماحة: التغابن، وهو من أنواعها، والانظلام، والتبرّع بالنائل، وإجابة السائل، وَقِرى الأضياف وما جانس ذلك » (قدامة، د.ت: 96–98) يبدو أنّ ما جاء به **(قدامة)** في هذا الصدد لم يسلم من انتقاد بعض النقّاد له (القيرواني، د.ت،ج2: 108)، مثله مثل بقية الكتّاب والنقاد، وعلى الرغم من تضارب الآراء حول هذه الفضائل إلا أننا نجد فئة منهم قد اجتهدت في استنباط ما يصدر من اعتدال الأصول الأربعة السابقة من أخلاق رفيعة، فمن اعتدال «**قوة العقل** يحصل: حسن التدبير، وجودة الذهن، وثقافة الرأي، وإصابة الظن، والتفطّن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس، ومن **اعتدال قوّة الشجاعة** يصدر: الكرم، والجِدَة والشهامة، وكسر النفس والاحتمال، والحِلم والثبات، وكظم الغيظ، والوقار، والتودّد، ومن **اعتدال العفّة** يصدر: السخاء، والحياء، والصبر، والمسامحة، والقناعة، والورع، واللَّطَافَة، والمساعدة، والظُّرف، وقلة الطمع، أما **العدل** إذا فات فليس له طرفا زيادة ونقصان، بل له ضدّ واحد ومقابل واحد وهو الجور» (الغامدي، 1423هـ/2002م:17)، وإذا ما أردنا أن نوضح أمّهات الفضائل برؤية شكلية كانت كالآتي:

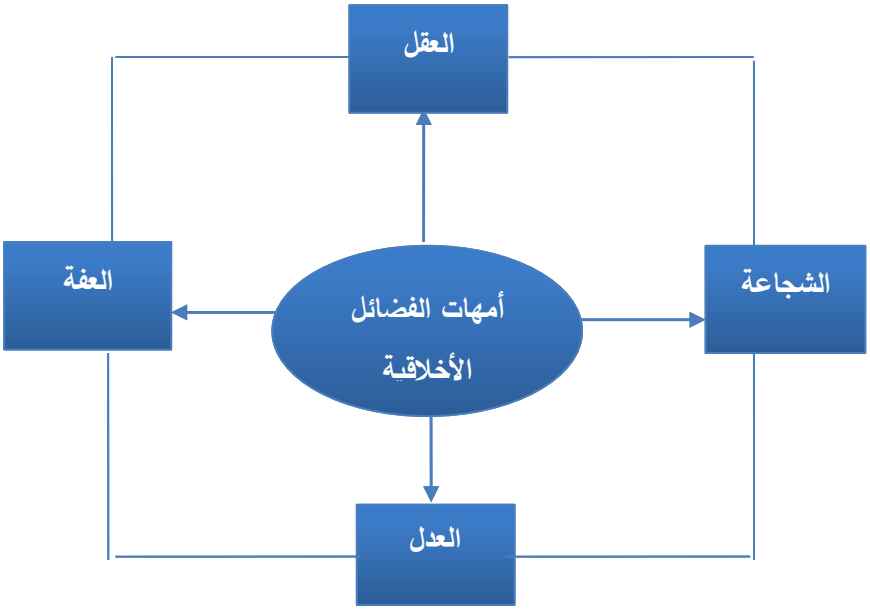

مخطط توضيحي يبرز أمهات الفضائل الأخلاقية

وبعد أن عرفنا أصول الفضائل وما ينطوي تحتها سنبرز أهمّ القيم الأخلاقية عند **(عَدِّي)** منطلقين من اعتدال الأصول الأربعة للفضائل، والبداية ستكون مع:

1 – العقل:

يُعَدُّ العقل بمثابة المحرّك الذي يُشغل الإنسان، ويجعله يضبط الأمور بين ما هو خير وما هو شر، فحقيقة العقل تكون: «بتمييز الحقائق والعلوم من كل ما يدور، ثم إدراكها؛ أي الإمساك بها، وتنظيمها في سجل الحافظة والذاكرة... والعقل يكون بمعنى الضبط وقدرة الرفض والتمييز للخطأ أو الشّر أو الزيف، وبذلك يستقيم الطريق لمهمته الأولى وهي تحصيل المدركات السليمة، والعلوم، والحقائق التي تحفظ النّفس والبدن وتهديهما إلى سواء السبيل» (سالم، 1989م:209)، وعلى هذا يكون العقل المنبع الأساس الذي تهتدي إليه نفس الإنسان، في تحديد الأخلاق، وأوّل قيمة أخلاقية تستند إلى العقل، في عملية إبداعها هي الحكمة؛ لأنها نِتاج تجارب الإنسان عبر الزمن، وقد كان للحكمة حضور مُلِحٌّ في شعر **(عَدّي)**، فقد كانت نابعة من رجل حكيم، ذي بصيرة نافذة في الحياة.

أ- الحكمة:

تُعَدُّ الحكمة الجاهلية بمثابة المثل العليا السائدة في ذلك العصر، فهي ثمرة تجارب طويلة، خاصة أنها اتّسمت بالواقعية والصدق في التعبير عن التجارب والخبرات، فالحكمة تكاد تكون جامعة للقيم الأخلاقية في المجتمع الجاهلي، والمُطّلع على الشعر الجاهلي يجد أنّ أغلب شعرائه يطرقون باب الحكمة بوصفها الفنّ الذي يستطيع أن يحافظ على الفضائل، التي طالما افتخر وحافظ عليها الإنسان الجاهلي، والحكمة على حدّ تعبير **(يحيى الجبوري)**، هي: «نظرات وانطباعات وتأمّل في الحياة والموت، ومحاولات لسنّ نظم خلقية يتّبعها النّاس فيما يرضونه من خصال وسلوك، أو ما ينكرونه من أفعال وعادات، ولذلك جاءت حكمتهم حقائق مجرّدة في متناول الفطرة السليمة تمليها التجربة والمشاهدة، وفق مثلهم العليا السّائدة في عصرهم» (الجبوري، 1986م: 304).

وإذا ما تكلّمنا عن الحكمة في شعر **(عَدّي)**، فإننا نجد ديوانه يكاد يكون أغلب قصائده حِكم، ولهذا نستطيع أن نقول عنه إنّه شاعر الحكمة في الجاهلية بامتياز، وقد كانت حكمه بصيرة مهذّبة، فله قصيدة طويلة تبلغ حوالي اثنين وأربعين بيتا عَدّها **(أبو زيد القُرشيّ)** في كتابه **(جمهرة أشعار العرب)** من أجود المجمهرات، وما يميّز هذه الحكمة أنّها ثمرة للتأمّل الفكري المنظّم، وهي ذات طابع إنساني اشتملت على مجموعة من المبادئ والآمال التّي يشترك فيها جميع الناس في أقطارهم المختلفة، وأزمنتهم المتباعدة، فقد طابقت حكمه الحقيقة إلى حدّ يمكن أن نعدّها قوانين اجتماعية، يُسَلِّم بصوابها جميع النّاس، فلحكمة **(عَدّي)** غايات أخلاقية وتربوية تهدف إليها، وما لاحظناه كذلك عن مجمهرة (عَدِّي) أنه جمع فيها بين جودة المعنى ومتانة المبنى، حيث أضفى على الحِكمة مسحة من الجمال، ممّا يعطيها قوّة التأثير، فالمعنى الجيّد والصياغة الأنيقة هما اللذان يصنعان الحكمة المؤثّرة، وقد بيّنتْ هذه الحِكمة –كغيرها من حِكمه– نُضج فكر قائلها وتديّنه وخبرته بالحياة وأهلها، كما أنّ أفكاره تبدو عميقة تدلّ على أنّ الشّاعر خَبَرَ النفوس وعرف مكنوّناتها، وكيف لا وهو العارف بأحوال كثير من النّاس، وهذا بفضل ثقافته العميقة وطوافه عبر البلاد، وممّا جاء في مجمهرته نذكر حديثه عن إصلاح النفس، وابتعاده عن الكلام الفاحش، يقول (العبّادي، 1965م: 104):

(بحر الطويل)

ISSN: 2523 – 1871

فَنَفْسَكَ فَاحْفَظهَا مِنَ الغَيِّ وَالخنا مَتَى تُغْوهَا يُغْوَ الذِّيْ بِكَ يَقْتَدِيْ

بدأ الشاعر بيته الشعري باستخدام الأسلوب الإنشائي الطّلبي الذي جاء بصيغة الأمر، والغرض منه النصح والإرشاد، وهي دعوة صريحة إلى عدم اتّباع شهوات الدنيا وملذّاتها، وفي هذا تعبير عن شخصية الشاعر الزاهدة، فهو يحمل رسالة إصلاح النفس واستكمال فضائلها، وهذا لا يكون إلّا بالابتعاد عن شهوات الدنيا، لترسم النهج القويم لمن أراد أن يقتدي بك؛ لأنّ الغنى غنى النفس.

كما يحذّر الشاعر من سرعة الغضب في مقام المزاح، ويدعو إلى عدم الجزع والضجر في قوله: (المصدر نفسه: 104)

(بحر الطويل)

إِذَا أَنْتَ فَاكَهْتَ الرِّجَالَ فَلَا تَلَعْ وَقُلْ مِثْلَمَا قَالُوالا تَتَزَيَّدِ

ويقدّم لنا نصيحة ثمينة وهي عدم الإفراط في المزاح؛ لأنه يقلّل من شأن صاحبه ولو كان حكيما حليما، فكلّما كثر الهزل والضحك نقصت مكانته، وهذا يبرز في قوله (المصدر نفسه: 104):

(بحر الطويل)

وَإِيّاكَ مِنْ فَرْطِ المُزَامِ فَإِنَّهُ جَدِيْرٌ بِتَسْفِيْهِ الحَلِيمِ المُسَدِّدِ

وفي معرض حديثه عن المرء ومصاحبته، يقول الشّاعر: إذا أردت أن تعرف المرء جيّدا فلا تسأل عنه هو، وإنما اسأل عن صاحبه؛ لأن المُصَاحِب يفعل مثل ما يفعل صاحبه تشبّها به، وعليه يجب على المرء أن يجانب مَنْ كان ذا شرّ من أقرانه، أمّا إذا كان ذا خير فيجب مصاحبته؛ ليكون مثله في الهداية والرشاد إلى الخير يقول: (المصدر نفسه: 122)

(بحر الطويل)

عَنِ المَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِيْنٍ بِالمُقَارَنِ يَقْتَدِيْ

فَإِنْ كَانَ ذَا شَرٍّ فَجَانِبْهُ سُرْعَةً وَإِنْ كَانَ ذَا خَيْرٍ فَقَارِنْهُ تَهْتَدِيْ

والملاحَظ من حكم (**عَدّي**) أنها حِكَم تنمّ عن كره وازدراء لمن اتّبع الهوى واللغو، وتنمّ عن تقدير واحترام في إشارته إلى الشرفاء ومناقبهم، والهدف منها هو تكوين إنسان مثالي ملتزم، يؤمن بالقيم والمبادئ.

ب- التسليم بحتمية الموت والتذكير بها لأخذ العبرة:

يُعَدُّ التذكير بحتميّة الموت من الأفكار الدينية السامية، التي توجّه الإنسان نحو الأخلاق الرفيعة، فالإنسان يبقى عاجزا أمام حتميّة الموت، فيتدخّل المعتقد الديني؛ ليكون بديلا عن حالة اليأس التي تسيطر على الإنسان، وقد تناول الشعراء الجاهليّون الموت من جوانب عدّة، ورصدوا مجموعة من الظواهر المتعلقة بها، فتحدّثوا عن «حتمية الموت، وإتيانه على جميع الخلائق، وعن تفاوت الآجال، وعن كراهية الإنسان للموت، وهم في كلّ ذلك يصوّرون الموت طالبا والإنسان مطلوبه، أو صائدا يلقى شباكه على النّاس، فيصيب منهم ما يريد؛ لأنّ سهمه لا يخطئ، وقصده لا يخيب» (حسن،عبد الحميد، 1991م:128)، وفي شعر (**عَدّي**) نجد تذكيرا بالموت من خلال أخذ العبرة من الأمم السّابقة والزائلة، يقول (العبّادي: 122):

(بحر الخفيف)

أَيْنَ أَهْلُ الدِّيَارِ مِنْ قَومِ نُوحٍ	**ثُمَّ عَادٍ مِنْ بَعْدِهِمْ وَثَمُودُ**
أَيْنَ آبَاؤُنَا وَأَيْنَ بَنُوهُم	**أَيْنَ آبَاؤُهُمْ وَأَيْنَ الجُدُودُ**
سَلَكُوا مَنْهَجَ المَنَايَا فَبَادُوا	**وَأَرَانَا قَدْ كَانَ مِنَّا وُرُودُ**
بَيْنَمَا هُمْ عَلَى الأَسِرَّةِ وَالأَنْـ	**ـطِ أَفْضَتْ إِلَى التُّرَابِ الخُدُودُ**
ثُمَّ لَمْ يَنْقَضِ الحَدِيثُ وَلَكِنْ	**بَعْدَ ذَا الوَعْدُ كُلُّهُ وَالوَعِيدُ**
وَالأَطِبَّاءُ بَعْدَهُمْ لَحَقُوهُمْ	**ضَلَّ عَنْهُمْ سُعُوطُهُمْ وَاللَّدُودُ**
وَصَحِيحٍ أَضْحَى يَعُودُ مَرِيضًا	**وَهُوَ أَدْنَى لِلْمَوتِ مِمَّنْ يَعُودُ**

ففكرة الفناء كانت بمثابة المحرّك للشّعور الديني الذّي فرض نفسه على الخطاب الشعري لـ(عَدّي بن زيد) لِسَدّ الفراغ الرّوحي الذي يعيشه في غياهِب السجن، حين وقف مذكّرا بحتمية الموت بهدف

ISSN: 2523 – 1871

توجيهنا إلى المُثُل والأخلاق الحسنة، وقد استعان بالقصص التاريخية؛ لإبراز حتمية الموت فـ«هو يتّخذ من التاريخ دروسا وعظات، يتفكّر في مصير النّاس وفناء الماضيين وزوال النعم، وهو في مواضِع كثيرة من شعره يقصّ على الناس أخبار الملوك والجبابرة، الذين أبادهم الدّهر، وأخنى عليهم الزمان، ولذلك فلا مطمح في الدنيا ولا مأمن من غدرها، فالإنسان ضعيف في هذه الدنيا يسافر في طريق الفناء، فلا يغرنّك ما تراه من رفاه الناس وما عليهم من نعمة وترف» (الجبوري: 411–412)، معبّرا بذلك عن سؤال وجودي في قوله: (أَينَ أَهلُ الدِّيَارَ منْ قومِ نُوحٍ)، وقد ربط الشاعر هذا السؤال بالمكان مذكّرا بالأمم السابقة وما آلت إليه، واعتمد الشاعر لتأكيد حتمية الفناء على التكرار الذي جاء بصيغة الاستفهام، وقد أراد به ترسيخ فكرة الفناء في ذهن المتلقي.

وسعى (عَدّي) –كذلك– إلى تنوير العقل وتحريره من نمط التفكير المنحطّ، والاعتقاد بدوام الحياة، مبيّنا أن تلك الأقوام البائدة كانت في غفلة ورغد عيش، متناسين يوم الآخرة، ويهدف من خلال قوله الترفّع عن شهوات الدنيا وملذّاتها، وهذا ما يكشف لنا عن صفاء قريحته، وعن معرفة كاملة بأحوال الملوك والأمم والناس جميعا، وقد ساعده في هذا التنقّل بين أرجاء البلاد والتبصّر في مصائر الناس.

ونختم حديثنا عن فكرة الموت والتذكير به عند **(عَدّي)** ببيت شعري يلخّص لنا رؤيته الصائبة في هذا المجال، التي تنتهي بالرجوع إلى الله في حتمية الموت، وهنا تبرز بوضوح ديانته وزهده، فقد كان راهبًا في زمانه يقول: (العبّادي: 150):

(بحر الخفيف)

لَيْسَ شَيءٌ عَلَى المَنُونِ بِبـاقٍ غَيْرِ وَجْهِ المُسَبِّحِ الخَـلَّاقِ

2–الشّجاعة:

قد كانت الشجاعة في الجاهلية مظهرا من مظاهر القوّة والبسالة، وقد كان العرب يتفاخرون بها، ويكثرون منها في أشعارهم، فهي من أبرز صفاتهم؛ لأن «فيها قوّةً، وتحدّيًا للمنيّة، وفيها دربةً وتفوّقًا في استعمال الأسلحة المختلفة، وفيها إنسانيةً وكرمًا، وإنصافًا للأعداء، ووفاءً للوعد...» (الدسوقي، د.ت: 29)، ومن مظاهر الشّجاعة في شعر **(عَدّي)** نذكر:

أ–الوفاء :

إنّ الوفاء من أهمّ القيم الخلقية البارزة في عصر ما قبل الإسلام، فالعرب قديما عدّوه من صفات الرجولة والمروءة؛ لأنّ من سمة الرجل الشهم هو وفاؤه بما ألزم نفسه به، وقد كان للوفاء صور متعدّدة آنذاك، منها: الحفاظ على الأمانة، وأداء الدَّيْن، وحفظ العهد والوعد والميثاق...، فالوفاء موقفٌ أخلاقيٌ يفرض نفسه على الإنسان، ويستدعي نوعا من الالتزام به، وكلّما كان الفرد أكثر وفاءً وتمسّكا بهذه القيمة، كان أكثر قيمة ومكانة عند الآخرين، ومن لا يتحلّى بالوفاء لا قيمة له عند الآخرين. وقد ذكر صاحب كتاب **(المستطرف في كل فن مستظرف)** أنّ الوفاء «من شيم النّفوس الشّريفة، والأخلاق الكريمة، والخلال الحميدة، يعظم صاحبه في العيون، وتصدق فيه خطرات الظّنون» (الأبشيهي، د.ت،ج$_1$: 206) ، والوفاء في النص الشّعريّ العبّاديّ كان مغايرا تماما عمّا ألف في الوفاء، فنجده وفاءً للصديق الذي تحول بين ليلة وضحاها إلى العدو اللّدود؛ بسبب زجه للشاعر في السجن دونما حق، وقد تحدّث **(عَدّي)** عن الوفاء في شعره، وأثبت هذه الصفة لنفسه بقوله: (العبّادي: 51–52)

(بحر البسيط)

فَعِشْتُ أُولي صديقِي ما يُسَرُّ بهِ ... ومَنْ تكَيَّدني نابـاً وأظْفـارَا

فَخَالَ ذلكَ أَحْلَاماً أُذكرهـــا ... بَعْدَ النَّعِيمِ وكانَ العيشِ أَطوَارَا

مَنْ مُبلِغُ الصَّعْبَ عَنْ عانٍ يودُ لَه ... طُولَ الحيـاةِ وفيماً رامَ إظْهارَا

إِنِّي سُررتُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ وَصَب ... بمَا ينبِئُ قيْسٌ عنكَ أَخْبَـارَا

إذَا حلَّ عنكَ عيزُ الفقْدِ مجْتَنِباً ... للهَاجِراتِ تَقِيَّ الصَّدْرِ نَحَّـارَا

فَلو هَلكتَ تَرَكتَ النَّاسَ في وَهَلٍ ... بَعدَ الجميعِ وصارَ العيْشُ إِكْسَارَا

فَالحَمدُ لله إذْ نَجَّـاكَ من عَطَبٍ ... واللهُ لا يبتغي لِلْحَمدِ أنْصَـارَا

البعد الأخلاقي في هاته الأبيات واضح المعالم، عندما عبر الشاعر عن روح التسامح، وقيمة الوفاء للصديق، والصديق الذي يتكلم عنه هو **(النّعمان بن المنذر)** ملك الحيرة، الذي كان لـ**(عَدّي)** الفضل في تولّيه الحكم، ثمّ أوقع الوشاة بينهما، فزجّ به الملك في السجن، وعلى الرغم من هذا فإنّ

الشاعر بيَّنَ لنا أنه وفيّ لـ(**النّعمان**) يُسَرّ لسروره، ويحزن لحزنه أنَّى وجد، مقيم على عهده، يودّ طول الحياة، وينفي عن نفسه شبهة الفرح فيما أصابه، وبهذا يتجاوز الشاعر أنانية الذّات، فينتقل هذا الإحساس إلى من ظلمه وأسره حتى وإن كان عدّوه الذي كاد له المكائد، وهذا ما يتضح في قوله: (وَمَنْ تَكيَدنِي نَاباً وَأَظْفَارَا). ويوجه الشاعر خطابه إلى من يبلغ رسالته إلى (**النعمان بن المنذر**)، الذي لقبه الشاعربـ(الصعب) وقد أطلقوا هذه التسمية عليه؛ لصعوبته في ملكه، فأورد الشاعر الصفة (**الصعب**) وحذف الموصوف (**النعمان بن المنذر**)، وفي هذا مبالغة في الوصف، ليعبّر له عن وفائه وإخلاصه له، وبهذا يخرج الاستفهام (**من**) من دلالته الحرفية إلى دلالته المجازية؛ ليعبّر عن عظمة الشخص الموصوف، وكذلك نراه يحمد الله الذي نجّى الملك من كل مكروه، ويقول كذلك مفتخرا بوفائه وشهامته (العبادي، المصدر نفسه: 171):

(بحر البسيط)

وَمَا بَدأْتُ خَلِيْلًا لِيْ أَخا ثِقَــــةٍ   **بِرِيْبَـةٍ لاَ وَرَبِّ الحِلِّ والحَــــرَمِ**

يَأْبَى لِيْ اللهُ خَونَ الأَصْفِيَاءِ وَإِنْ   **خَانُوا وِدَادِيْ لِأَنِّي حَاجِزِي كَرَمِي**

في هذين البيتين إشارة واضحة عن وفاء الشاعر لأصدقائه، وما يزيد البيت صدقا هو قسمه بالله، فهو الذي تأبى له نفسه خون أصدقائه حتى وإن خانوه؛ لأن أخلاقه ترفض له أن يكون من الخائنين، وهذا تلميح **لـ(النعمان)** وخيانته لعدي، ونكرانه للجميل من الأصفياء، و(**عدي**) في هذين البيتين «يعكس إحساسا إنسانيا عظيم النبل، يسبق فيه بحسّ حضريّ، ناقدًا قيم الجاهليين وما تعارفوا عليه من أخلاق. والجميل في هذا البيت –أيضًا– هو ذلك الفخر المستكنّ في نهايته، فهو لا يدافع عن نفسه بأن ينفي عنها خيانة الأصفياء، وإن خانوه ويقف عندئذ وحسب، بل إنّه يرجع هذه الخلة إلى حاجز كرمه، والبيت بهذا غاية في الجمال المعنوي، ويقع على المتلقّي نغما حلوا كريما، لا يني يردّده في يومه المرات» (الشطّي، 1998م: 96–97).

وما لاحظناه أن الوفاء عند (**عَدّي**) كان في مجمله وفاء إلى الملك (**النّعمان**) على الرغم من استعمال (**عدّي**) لضمير الجماعة بدل التخصيص، وهذا الوفاء هو بمثابة تذكير لـ(**النّعمان**) بما كان من الشاعر من نعم عليه، وعلى رأسها فضله في توليه الحكم، وفي الوقت نفسه نجد أن الوفاء عند

شاعرنا بمثابة تصغير من شأن الملك الذي خان صديقه، فأراد أن يقول له: أنا لست ملكا لكنني وَفِيّ أكثر منك؛ لأن الملك من واجبه أن يتحلّى بمكارم أخلاقية سامية؛ لأنه يعبّر عن الجماعة.

ب-الكرم:

يُعَدّ الكرم أبرز صفة أخلاقية امتاز بها العربي آنذاك، وقد حافظ عليها حفاظًا شديدًا؛ لأن الكرم هو القيمة الوحيدة التي ترفع من شأنه، وتعطيه مهابة بين النّاس، ولكي نعرف حقيقة الكرم العربي، نورد ما قاله "**حسن مسكين**" في حديثه عن الكرم وبواعثه: «وقد جسّد مقوّما أساسيا في تثبيت التميز لكل ذات، تبتغي الفوز بِرضى الجماعة، هاته التي آمنت بالقِرى من غير سؤال، والمنح من غير حدود أو حصر، تبتغي بذلك تخليد الاسم، وضمان الاستمرار في التميز والحضور، ضدا على مكر الزمان، وتعاقب الأيام، خاصة وأنّ هذا العربي عرف منذ القديم بتفانيه الشديد في حب البذل الكثير، إلى درجة أن صفة الكرم ارتبطت باسمه، بل إنّها هي التي حدّدت شخصه كذات متفرّدة، تستحقّ الذّكر، وتتطلّب الإشادة؛ لتغدو أخيرا ذلك النموذج الذي تحتذيه الذوات اللاحقة، وتتمثل به باستمرار تشريعا لعمله، وتخليدا لصنيعه خلال الحياة، بعد الموت» (مسكين، 2005: 131)، و(**عدي**) في كرمه يأخذ اتّجاهين: اتّجاه العربي البدوي الأصيل واتّجاه العربي القروي، فمن كرم البدوي نجده في قوله: (العبّادي: 98):

(بحر الرجز)

بِيْضُ مَطَاعِيمَ فِي الشِّتَـــاءِ وَإِنْ أَخْلَفَ نَوْءٌ عَنْ وَبْلِهِ وَبَلُـــو

لايَتَــأَرُونَ فِيْ المَضِيـــقِ وَإِنْ نَــادَى المُنَادِيْ أَنْ أَنْزِلُوا نَزَلُوا

صوّر لنا (**عَدّي**) كرم أفراد قومه، وهذا بكثرة إطعامهم للسائلين، وقد خصّص الشتاء هنا لدلالته على عظمة الكرم في هذا الفصل بوصفه الفصل الأكثر صعوبة في العيش وجلب الرزق، وقد استعمل كذلك لفظة (مطاعيم) التي هي من صيغ المبالغة، والتي زادت تقوية للمعنى، ويعدد لنا في الشطر الثاني جلالة هذا الكرم من قومه، حيث شبّههم بالمطر في الجود على الأرض، وهذا إذا انعدم الخير على الناس أمطروا عليهم بالخير والرزق، وهذا لكي يعوضوهم عن القحط، ومن كرمه نجده يوجه كلامه لعاذلة جاءت تذمّه لكرمه الذي تراه هي تبذير للمال، يقول (المصدر نفسه: 103):

(بحر الطويل)

ذرِيْنِيْ فَمَـالِيْ مَا تَقَدَّمَ مِنْ رَدَى ... وَمَا أَشْتَهِيْ مِنْهُ وَمَا خَفَّ عُوَّدِيْ

وحُمَّتْ لِمِيْقَـاتٍ إِلَيَّ مَنِيَّتِـيْ ... وَغُودِرْتُ، إِنْ وُسِّدْتُ أَوْ لَمْ أُوَسَّدِ

فَلِلْوَارِثِ البَاقِيْ مِنَ المَالِ فَاتْرُكِيْ ... عِتَـابِيْ فَإِنِّيْ مُصْلِحٌ غَيْرَ مُفْسِدِ

و(عَدّي) كان مقتنعا بحتميّة الموت مصيرا للجميع، وهي كانت بمثابة السبب الرئيس والدافع لإنفاق ماله وعدم الجدوى من حفظه، خاصّة أن الموت يترصّد به من كل جانب، وقد بدا هذا واضحا من خلال رفضه لعتاب زوجته التي غالت في لومه بسبب إنفاق ماله والتبرع به، وهو بهذا العمل وكأنه يريد مواجهة مصيره الذي هو من دون شكّ مشؤوم، فبكرمه هذا «يسعى بإنفاقه من أَجْل تحقيق ذاته بصورة أفضل، ولكنه كان يقدّم ما هو معلوم من أجل ما هو مجهول، وهو بذلك يعبّر –بصورة ما– عن قلقه من المجهول الذي ينتظره» (رياح، 2013/2012م: 232)، والكرم عند عدي لا يتوقف عنده هو فحسب، إنما ينتقل إلى ملكه، فقد بيّن لنا كرم النعمان في قوله (العبّادي: 52):

(بحر البسيط)

إِذَا حَلّ عَنْكَ عَزِيزُ الفَقْدِ مُجْتَنِبًا ... لِلْهَـاجِرَاتِ نَقِيّ الصَدْرِ نَحّارَا

الشاعر – هنا – يعلي من شأن ممدوحه، وهذا من خلال وصفه بالكريم الذي ما حلّ عنده ضيف إلّا وجده في استقباله بصدر رحب، وأعدّ له كلّ ما لذّ وطاب، والشاعر بإعطاء هذه الصفة لممدوحه، إنّما أراد أن يُعلي من شأن الجماعة، فالملك يمثّل إمارة بأكملها، ووصفه بكرم أخلاقه ما هو إلّا إعلاء من شأن إمارة الحيرة، التي ينتسب إليها شاعرنا، وهو بهذا يتجاوز ذاته التي طالما رأيناه ينسب أغلب الصفات الأخلاقية إليها.

وما يمكن قوله هو: إنّ (عديا) في كرمه يأخذ اتّجاهين: اتّجاه العربي البدوي الأصيل، واتّجاه العربي القروي، فمن عادة الشعراء الحضريين إذا أدرجوا الكرم في شعرهم، فإنّ أغلبهم ينسبونه إلى إنفاق المال ولوم العاذلة لهم في هذا الشأن؛ لأنّ بذل المال سيؤدّي إلى نقصه، ومن ثم سيقود إلى الاحتياج والسؤال، أمّا الكرم عند أصحاب القبائل فنجده مقرونًا بالذبائح ولون القدور، وتشبيهات تُستقى منابعها

من مظاهر الطبيعة؛ ليرسموا لنا صورة عن هذا الكرم، وقد وُفِّقَ **(عَدّي)** في الجمع بين الصورتين البدوية والحضرية في كرمه، وهذا يدل على مدى ثقافته وبراعته في تقريب صور الكرم ومزجها، فالشاعر صرّح بكرم قومه، وكذلك كرم الملك وكرمه.

ج- الحِلم وسعة الصدر:

إنّ الحِلم وسعة الصّدر قيمة أخلاقية تجعل من حاملها يتعالى عن توافه الأمور وصغائرها، وتجعله كذلك واسع الصدر لا ينفعل مع أغلاط الآخرين، بل تجده مستوعبا لها وصابرا على كلّ التفاهات، وهذه المزايا لا تؤتى إلا لمن كان رزينا يحتكّم بعقله في التصرف مع الأمور، وهو بهذا يكون من مصاف الحكماء الذين «لا يغضبون في الوقت الذي يثور فيه الناس، ولا تضيق صدروهم لأخطاء الآخرين، بل يجدون لها الأعذار، وإلى جانب أنّ الحِلم قيمة أخلاقية فإنّه قاعدة سلوكية ينطلق منها الفرد؛ ليصلح ما فسد من أخلاق مجتمعه، فتكون أخلاقه وسعة صدره بمثابة دعوة لمن حوله للاقتداء بها والتخلّق بأخلاقه الحليمة» (الكحلوت، 2010: 288)، و**(عَدّي)** من أبرز شعراء عصره الذين يتحلّون بهذه القيمة الأخلاقية، وممّا جاء في هذا الصدد قوله (العبّادي: 69-70):

(بحر السريع)

فَلَا يَزَلْ صَدْرُكَ فِيْ رَيْبَـــــــةٍ تَذْكُرُ مِنّيِ تلَفِي أَو خَلُـــوصْ

يَا نَـفْسُ اِبْقِيْ وَاَتّقِي شَتْمَ ذِيْ الـ أَعْرَاضِ إِنّ الحِلْـــمَ مَا إِنْ يَنُـوصْ

في هذا الخطاب الذّي وجّهه الشاعر إلى **(عَبْدِ هند)** يصف لنا الشاعر حاله في تحمل إساءة أقرب الناس إليه وهي زوجه **(هند بنت النعمان)** التي كانت ترتاب على أعدائه، وتسمع منهم ما يقولون عن **(عَدّي)** بغير حق دون أن تدافع عنه، وقد قابل **(عَدّي)** هذه المعاملة السيئة بسعة صدره وحِلمه، وذلك بابتعاده عن شتم ذي الأعراض؛ لأنّ مجافاة القريب ليست من أخلاقه، وقد استعمل أسلوب النداء وهذا في أثناء محاورته لذاته، وقد ربط هذا النداء بصيغة الأمر، وعليه يكون «خطاب النّفس بأداة النداء يعود إلى سياق الخطاب المجازي المتعلّق بتقريب الأشياء غير الملموسة، ووضعها في إطار قريب من الإنسان، فالشاعر يأمر نفسه بأن تبتعد عن شتم ذي الأعراض، وإن زجر النفس عن غيّها ومحاولة ثنيها

عن السوء والقبح جاء بصيغة الأمر، التي تبرز وعي الشاعر وحرصه على أن يظلّ بعيدا عن دائرة السوء» (ربابعة، 2011: 31)، وقد كان شجاعا في هذا الموقف؛ لأن أقرب إنسان إليه –وهو زوجه– لم تقف معه في أشدّ أيّامه عصيبةً.

3–العفّة:

ومن مظاهرها نذكر:

الصبر:

يُعَدُّ الصبر أجلّ سمة أخلاقية في الإنسان، فقد وُجِد بمثابة اختبار للمرءِ وانعكاس لشخصيته في مدى تحمّل المتاعب ومواجهته، «وهو قوّة خُلُقية من قوى الإرادة، تمكّن الإنسان من ضبط نفسه؛ لتحمّل المتاعب والمشقّات والآلام، وضبطها عن الاندفاع بعوامل الضجر والجزع، والسأم والملل، والعجلة والرعونة، والغضب والطيش، والخوف والطمع، والأهواء والشهوات والغرائز» (الميداني، 2002،ج$_2$: 305)، والصبر عند **(عَدّي)**، كما يقال، صبران: صبر على من يحب وهو **(النّعمان)** الملك، وصبر على من يكره وهو السجن، وما أَجَلَّه من صبر عند الشاعر عندما يعرض لنا غدر الأيام التي تتقلّب على صاحبها وما عليه إلّا التحلّي بالصبر، يقول (العبّادي: 90):

(بحر الخفيف)

غَيْرَ أَنَّ الأَيـــــــامَ يَغْدُرْنَ بِالمَرْءِ ... وَفِيْهَـا المَيْسُـورُ وَالمَعْسُــــــورُ

فَاصْبِرِ النَّفْسَ الخَطُـــــــوبَ فَإِنَّ ... الدَّهْرَ يَدْجُو حِيْنــاً وَحِيْنــاً يُنِيـــــرُ

لقد صوّر لنا **(عَدّي)** غدر الأيام بالمرءِ، وتقلب الأحوال فيها من ميسور إلى معسور أو العكس صحيح، وقوله هذا يعكس حاله وكيف كان تقلّب الزمان عليه، فبعدما كان يعيش حياة ترف وسلطة ونفوذ، انقلب عليه الحال وحيدا خلف قضبان السجن، ويوجّه نصيحة للمرءِ جاءت بصيغة الأمر (فاصبر النّفس) بمزاولته للصبر، وأن يَصبر النفس في جميع الأحوال، فبالصبر آخر يتجاوز الهمّ والأزمات .

ISSN: 2523 – 1871

4- العدل:

إنّ العدل يُعَدُّ بالدرجة الأولى ضرورة إنسانيّة، وهذا من ناحية كونه الأساس الذي تُبنى عليه وتنتظم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، ويقترن العدل دائما بالعمل الصالح والبرّ والإحسان (السحمراني، 1988: 117)، وممّا جاء في شعر عدي يدعو إلى العدل نذكر ما جاء في قوله (العبّادي،: 107):

(بحر الطويل)

وَبِالعَدْلِ فَانْطِقْ إِنْ نَطَقْتَ وَلَا تَلُمْ وَذَا الذّمِ فَاذْمُمْهُ وَذَا المَمْدِ فَاحْمَدِ

الشاعر يأمرنا بأن نعدل في كلامنا وحكمنا على الناس، وأن نبتعد كلّ البعد عن النفاق الاجتماعي، وألّا نقول إلّا الحقّ، فإذا كان الإنسان يحمل صفة سيّئة، فيجب أن نكون منصفين في قولنا له دون زيادة أو نقصان، كذلك هو الحال بالنسبة للإنسان الذي يستحقّ الحمد الحامل للصفات الحميدة، فيجب أن نذكر خصاله الحميدة للناس، ونثني عليه؛ لأنّه يستحق ذلك.

خاتمة:

وصفوة القول بعد الذي تقدم هو: إنّ القيم الأخلاقية في العصر الجاهلي –بتنوع مرجعيّتها من فطرة وبيئة ودين– أسهمت في توجيه سلوك العربي، وخلقت نوعا من الاستقرار آنذاك؛ لأنها كانت عندهم بمثابة الهويّة يحافظون عليها ويفتخرون بها، وقد بدا لنا هذا جليّا من خلال ما عرضناه من قيم أخلاقية في شعر **(عَدّي بن زيد العِبَّادي)** والتي تبدّت لنا متشكلة عنده في ثلاث نقاط هي:

- **معاملته مع نفسه:** بالابتعاد عن كل ما يسيئ له أو يهدم أخلاقه التي عرف بها.
- **معاملته مع الأصدقاء:** من خلال روح التسامح والوفاء سواء أكانوا أوفياء أم لا.
- **معاملته مع خالقه:** وهذا من خلال التسليم بحتميّة الموت، والرضا بالقضاء والقدر، وما يحمله له من خير وشر.

وعلى الرغم من أنّ هذه الأخلاق التي تحلّى بها العربي في الجاهلية فأنها لم ترتقِ إلى النموذجية إلّا عندما اتّصلت بالإسلام؛ لأنه منحها الامتداد والتعمق.

قائمة المصادر

1. الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن احمد أبي الفتح(د.ت). "المستطرف في كلّ فنّ مستظرف"، مصر، مكتبة الجمهورية العربية. ج1.
2. ابن رشيق القيرواني، أبي علي الحسن(د.ت). " العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده "،تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة.
3. الإسكندري، أحمد وآخرون(1994) " المفصّل في تاريخ الأدب العربي"، ط1، بيروت، دار إحياء العلوم.
4. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر.(1988م). " الحيوان"، تحقيق عبد السلام محمد هارون. بيروت، دار الجيل،ج4.
5. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر.(1399هـ). " رسائل الجاحظ "، تحقيق عبد السلام محمد هارون،ط1، القاهرة، مكتبة الخانجي.
6. الجبوري، يحيى(1986). "الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه"، ط5، بيروت، مؤسسه الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع.
7. حسن، عبد السّلام ، أحمد عبد الحميد(1991) "الموت في الشعر الجاهلي "، ط1، القاهرة، مطبعة الحسين الإسلامية.
8. الحوفي، أحمد محمد. ""، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، ط2، مصر، مكتبة نهضة مصر.
9. خليف، يوسف.(فبراير1965). "مقدّمة القصيدة الجاهلية محاولة جديدة لتفسيرها"، **مجلة المجلة**، 1(98) متاحة على الموقع http://archive.sakhrit.co/newPreview.aspx
10. الدسوقي ،عمر(د.ت). " الفتوة عند العرب أو أحاديث الفروسية والمثل العليا "، الفجالة، مكتبة نهضة مصر.

11. الذبياني، النابغة (1996). " الدّيوان "، شرح وتقديم عباس عبد السّاتر، ط3، بيروت، دار الكتب العلمية.

12. ربابعة ، موسى سامح(2011). " تشكيل الخطاب الشعري دراسات في الشعر الجاهلي "، ط1، عمان، دار جرير للنشر والتوزيع.

13. رباح، علي(2013). "البحث عن الذات في الشعر الجاهلي"، رسالة دكتوراه غير منشورة. كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.

14. رشيد،أبو القيس محمد(2017)، "حقيقة الشاعر عنترة العبسي بين ديوان الشعر والسينما المصرية"، قناة الشعر الجاهلي. متاح على الموقعhttps://www.youtube.com/watcho

15. زريقي، سميحا (شتاء1390هـ/2012). "القيم الأخلاقية والإنسانية في شعر أبي فراس الحمداني وسلوكه"، **مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، جامعة دمشق** ، ع8.

16. سالم، أحمد موسى (1989م). " لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب "، ط2، بيروت، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة.

17. السحمراني، أحمد(1988). "الأخلاق في الإسلام والفلسفة القديمة" ، ط1، بيروت، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع.

18. سليمان،علي.(2000). "الشّعر الجاهلي وأثره في تغيير الواقع: قراءة في اتجاهات الشعر المعارض" ، ط1، دمشق، منشورات وزارة الثقافة.

19. الشطّي، عبد الفتاح عبد المحسن(1998). " شعراء إمارة الحيرة في العصر الجاهلي "، ط1، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.

20. ضيف، شوقي(د.ت) "تاريخ الأدب العربي: العصر الجاهلي "، ط11، القاهرة، دار المعارف، ج1.

21. الطائي، أبو تمّام. " الديوان "، ط1، بغداد، نظارة المعارف العمومية الجليلة.

22. العبّادي عدّي بن زيد(1965). " الديوان "، حققه وجمعه محمد جبار المعيبد، بغداد، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع.

23. العشماوي، محمد زكي.(1980). " النابغة الذبياني مع دراسة للقصيدة العربية في الجاهلية "، ط1، بيروت، دار النهضة للطباعة والنشر.

24. الغامدي، محمد بن عبد الله بن حسين(1423هـ/2002). "الجانب الخُلُقي في المعلقات العشر"، رسالة ماجستير غير منشورة. كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، السعودية.

25. قدامة بن جعفر، أبي الفرج(د.ت). " نقد الشعر "، تحقيق: محمّد عبد المنعم خفاجي، بيروت، دار الكتب العلمية. ، لبنان.

26. الكحلوت، يوسف شحدة(2010). " الأخلاق الإسلامية في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف"، قسم اللغة العربية، الجامعة الإسلامية بغزة.

27. مسكين، حسن(2005). " الخطاب الشعري الجاهلي: رؤية جديدة" ،، ط1، ، الدار البيضاء المركز الثقافي العربي.

28. الميداني، عبد الرحمن حسن حنبكة(2002). "الأخلاق الإسلامية "، ط6 ، دمشق، دار القلم. ج2.